من أخطاء التفكير

١ ـ إساءة التعميم، أو التسرع في الاستنتاج:

«المقصود بالتعميم: هو العبارة التي تقرر انطباق حكم ما على جميع أفراد المجموعة»[١].

«والمفكر الجيد ليس معللاً أو مفسراً جيداً فحسب، بل هو مُعَمِّمٌ جيد... إن التعميم - أو صياغة القانون - نمط من التفكير كنمط التعليل، والعناصر فيهما واحدة، بيد أنها تختلف في ترتيبها. فالتعليل يضع النتيجة أو حصيلة الملاحظة، ثم يبحث لها عن قاعدة تحتويها. أما التعميم فيأخذ حصيلة الملاحظة ويجعلها حالة، أو جزئية، ينتقل منها إلى صياغة قاعدة عامة تنطبق عليها وعلى مثيلاتها... ولعل أشد أنواع التفكير السيئ ضرراً في عالمنا هو إساءة التعميم.. وجانب كبير من التربية قوامه أن يعلّمنا كيف نُحسنُ التعميم، ونميّز صحيح التعميمات من سقيمها، وإلا ازدحمت أذهاننا بقواعد خاطئة لا يمكن الركون إليها»[٢].

---

(١) الطريق إلى التفكير المنطقي - وليم شانر: ٤٩ (ترجمة د. عطية محمود هنا - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة ١٩٦١).

(٢) التفكير السديد - جوزيف چاسترو: ٣٧ - ٣٩ بتصرف.

ويقدم علماء التربية نصيحتين مهمتين لمن يريد التعميم - أو صياغة قاعدة أو قانون - حتى يكون أقرب ما يكن من الحقيقة، هاتان النصحيتان هما:

١ ـ افحص عدداً كافياً من أفراد النوع أو المجموعة التي تريد أن تصدر بشأنها حكماً عاماً.

٢ ـ تأكد من أن الأشياء التي تفحصها تمثّل النوع أو المجموعة أفضل تمثيل[١].

يقول جوزيف چاسترو[٢]: «إنك ما لم تضع القواعد لا تستطيع أن تعمل شيئاً، ولا أن تستعمل الأشياء في معيشتك اليومية. فأنت - مثلاً - تكوّن في ذهنك قاعدة عامة أن المعادن ثقيلة، فحينما تهمّ برفع ما تخبرك عيناك أنه حديد، أو نحاس، أو رصاص تتعود حشد مجهود كبير من عضلاتك. حتى إذا رفعت ذات مرة إناءً من الألمنيوم أدهشك أنه خفيف؛ لأنك كنت تتوقع أنه ثقيل، ودهشتك هذه دليل على أنه كانت لديك قاعدة سابقة بخصوص ثقل المعادن عامة.

(١) الطريق إلى التفكير المنطقي - وليم شانر: ٥٢ .
(٢) التفكير السديد: ٤٠ - ٤١ بتصرف.

obeikandl.com

«وهذا المثال يفضي بنا إلى خطوة أخرى؛ لأنك في الواقع استخدمت شيئاً زائداً على التعميم، استخدمت نَمَطاً من التفكير كما يلي:

«أنت - أولاً - وصلت إلى قاعدة مفادها أن المعادن ثقيلة عموماً، وذلك عن طريق الملاحظة نتيجة لتجاربك مع الحديد، والنحاس، والرصاص. واستنتجت كذلك أن الألمنيوم ينبغي أن يكون ثقيلاً؛ لأنه معدن، ثم تبين لك أنه مخالف للقاعدة. فأنت قمت بتطبيق القاعدة التي لديك، وهذا التطبيق هو النمط الثالث للتفكير، فأنت إذن تفسر، وتعمم، وتطبق، وتنتقل بين هذه الأنماط الثلاثة في التفكير جيئة وذهاباً.. وفي علم المنطق يسمى النمط الأول: الفرض، والثاني: الاستقراء والثالث: القياس.

«ولا ينبغي الاعتقاد بأن هذه الأنماط الثلاثة هي كل ما في ميدان الفكر... فهناك أشكال كثيرة تنجم عن امتزاج هذه الأنماط الكبرى في عمليات التفكير، فهي لا تظهر على نقائها إلا في العلوم والمعامل... أما العقل العامي فيستخدم هذه الأنماط مختلطة، ويتفاوت في القدرة والدقة، ولهذا يتفاوت في القرب من الحق، أو البعد عنه».

«ومن الأخطاء المتصلة بهذا النوع من التفكير اتصالاً وثيقاً ما يوضحه المثال التالي: إن التوتر والإجهاد يسببان السرطان، فإن السيدة (الفلانية) أصيبت بالسرطان بعد أن أجريت لها عملية المرارة، أما (فلان) فقد أصيب بهذا المرض بعد وفاة زوجته بأربعة أشهر، في حين أن آخر أصيب به بعد أن صدمته سيارة بفترة وجيزة، فلابد أن هناك علاقة ما بين السرطان والصدمات النفسية التي يتعرض لها الناس.

«مثل هذا النوع من التسرع في التفكير يمكن أن يسمى: البرهان عن طريق اختيار الأمثلة، فلا شك أن بضعة أمثلة من ملايين الحالات لا يمكن أن تعتبر دليلاً حقيقياً. إن الأمثلة القليلة لا تزودنا إلا بأساسٍ لنظرية معقولة، أو مجرد تخمين للصلة بين الأشياء. هذه الصلة يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار، وتدرس جيداً، ومع ذلك فإن الكثيرين من الناس يتسرعون في الوصول إلى نتائج اعتماداً على عدد قليل من الأمثلة»[١].

(١) التفكير الواضح – هاي روتشليس: ١٢٣ . (ترجمة لطيف دوس – دار نهضة مصر ١٩٦٨).

opelkandil.com

يقول الدكتور محمد عثمان نجاتي[١]:

«ليس من المتيسر للإنسان أن يفكر تفكيراً سليماً في موضوع ما دون أن تكون لديه البيانات الكافية، والمعلومات الضرورية المتعلّقة بالموضوع الذي يفكر فيه، ولا يستطيع أن يصل بتفكيره إلى نتيجة سليمة دون أن تتجمع لديه الأدلة والبراهين الكافية التي تؤيد صحة ما يصل إليه.. والعلماء والحكماء يتحرجون أشد الحرج في إبداء آرائهم، أو إصدار أحكامهم دون أن تكون لديهم الأدلة الواضحة البينة التي يستندون إليها فيما يصدرون من آراء وأحكام.

«وقد أشار القرآن الكريم إلى أهمية المعرفة بالموضوع في الوصول إلى الحق فيه فقال: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ**﴾[٢]. وقال: ﴿**الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ**﴾[٣]، أي: بغير دليل وحجة[٤].

---

(١) القرآن وعلم النفس: ١٥٠ بتصرف (دار الشروق - ط٥ - ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م).
(٢) الحج: ٨ . (٣) غافر: ٣٥ .
(٤) تفسير ابن كثير: ٤ / ٨٦ (ط. دار المعرفة - بيروت ١٩٨٧م).

ومما يتصل بهذا الموضوع عدم اطلاعنا على حجج المخالفين، وهو في الحقيقة عدم استيفاء البحث محلِّ النظر، وعدم إعطائه حقّه من النظر والتأمل والدراسة. ويتصل بهذا ـ أيضاً ـ أن لا نأخذ رأي غيرنا إلا من كلامه أو كتبه. وسبب وقوعنا في هذا الخطأ: إما الهوى، وإما الجهل بأصول البحث، ولو اطلعنا على حجج المخالفين لوجدنا في عدد من الحالات أن الاختلاف بين الرأيين ليس اختلافاً بين خطأ وصواب كما كنا نعتقد أو (نظن)، إنما هو بين راجح ومرجوح (أيضاً: من وجهة نظرنا، وحسب علمنا، وعقلنا، وفهمنا).

openkandl.com

٢ ـ الخطأ في استعمال التفكير النظري:

المراد بالتفكير النظري هو التفكير الذي يبحث عن الحقائق النظرية ويحاول أن يبرهن عليها. وهو تفكير محترم لازم حتى في صياغة النظرية العلمية والبرهان عليها في بعض الأحيان. ولكنه لا يغني عن (التفكير العملي) في المجالات التي لابد لنا فيها من الحصول على الحقائق والمعلومات.

فنحن نستطيع - مثلاً - أن نبرهن «نظرياً» على أن العدد (٣) هو الجذر التكعيبي للعدد (٢٧) لكننا لا نستطيع أن نحدد متوسط عدد الوجبات التي ينبغي أن نقدمها للطفل الرضيع بمجرد التفكير النظري، دون التجربة والمشاهدة لعدد كاف من الأطفال.

وكثير من الناس يكوّنون أراءً ومعتقدات يدافعون عنها بشدة بمجرد التفكير النظري البعيد عن التجربة والواقع، في حين لا بد لهم لتكوين الرأي الصحيح عنها من معلومات صحيحة منطبقة على الواقع.

ولعل ميدان السياسة هو من أصح الأمثلة على صدق ما نقول. فأنت تجد الاختلاف في وجهات النظر السياسية

محتدماً على أشدّه بين الناس، وتجد كل طرف يدلي بحججه ويتكلم بثقة وقوة، ويشرح موقفه من الدول، والأحزاب، والرؤساء، والزعماء.. موافقاً أو مخالفاً، وكأنه وزير خارجية لدولة كبرى، وفّرت له المعلومات الصحيحةَ أجهزة مشهود لها بالكفاية والثقة. فإذا سألته عن مصادر معلوماته ومن أين أعطاها هذه الثقة وجدت أنها تقديراتٌ نظريةٌ واستنتاجاتٌ عقلية بحتة، والجانبُ العملي فيها مستقى بشكلٍ أبتر من مصادرَ إعلاميةٍ لا يمكن الاطمئنان إلى صحتها وصدقها إلا بشكل جزئي.

يقول روبرت ثاولس[1]: «ثمة خطأ يقع فيه الإنسان بسبب الإخفاق في فهم العلاقة بين الكلمات والوقائع، وهذا الخطأ هو استعمال النظر العقلي أو التفكير النظري في حل المشكلات التي لا يمكن حلها إلا عن طريق المشاهدة وتفسير الوقائع. ففي كثير من المسائل التي نريد الفصل فيها نجد أنه من الصعب جداً الحصول على معرفة تامة دقيقة بالوقائع ذاتها، ولهذا فإننا نجد في هذه الحالة ما يغرينا على أن

(١) التفكير المستقيم والتفكير الأعوج: ٩٧ وما بعدها، بتصرف.

نصدر أحكامنا دون الاستناد إلى الوقائع الضرورية. بل قد نجد ما يغرينا على الظن بأن التفكير الدقيق - على الرغم من عدم وجود الوقائع الضرورية - كافٍ بحد ذاته لسد حاجاتنا...».

«والاعتقاد بأن الإنسان قادر على استنباط شيء ما عن الحقائق أو الوقائع بالنظر العقلي وحده وهمٌ من أقدم الأوهام في التفكير البشري. فالروح المعادية للعلم هي التي تحاول دوماً صرف الناس عن دراسة الواقعة، ودفعهم إلى نسج نظريات وهميةٍ خياليةٍ نابعةٍ من أذهانهم وحدَها، وهي الروح التي يجب على كل واحد منّا أن ينبذها من ذهنه؛ لأن إتقان فن التفكير ليس إلا البداية في فهم الواقع، ودون الحصول على الحقائق الواقعية الصحيحة يسوقنا تفكيرنا إلى الخطأ والضلال».

«ويمكننا أن نميز - كنوع خاص من التفكير الأعوج - محاولة الحصول على معرفة بالواقع عن طريق التفكير النظري. وهذه المحاولة تحدث في أي حجة تحاول استخلاص (ما هو كائن) مما يعتقد المتكلم أنه (يجب أن

يكون)، في أي نقاش يحاول المشترك فيه استنباطَ نتائج عن الحقائق الواقعة من استعمال الكلمات ليس غير.

«ولا نكران أن التفكير النظري له موضع مشروع حتى في التفكير بالأمور الواقعية، وهو الإيحاء بإمكاناتٍ أو احتمالاتٍ جديدة. وعلى ذلك فقد نستعمل طريقة التفكير النظري بشكلٍ سليمٍ في اقتراحِ ما قد يكون، أو ما يُحتمل أن يكون، ولكن ليس في استنباط ما هو كائن».

obeikandl.com

٣ ـ الاعتماد على مصادر غير صحيحة:

أشرنا في الفقرة السابقة إلى أن (الرأي أو الحكم الصحيح يعتمد على معلومات صحيحة). وهذا أمر بدهي، ولكن كم من الناس الذين يوافقون عليه يعتمدونه، أو يطبقونه في عالم الواقع؟

إن أكثر مصادر معلوماتنا ليست جديرة بالاعتماد عليها: فنحن نكوّن أراءً نؤمن بها، ونتخذ مواقف نتعصّب لها، إذا بحثنا عن مصدرها وجدناه صحيفة سيارة، أو مجلة غير متخصصة، أو حديثاً إذاعياً سمعناه لا نعرف من أعدّه، أو كتاباً لا نعرف عن مؤلفه شيئاً! بل نحن نبني بعض عقائدنا على أحاديث نبوية شريفة نظنها صحيحة، وإذا بها بعد النظر والتمحيص، إما ضعيفة، وإما لا أصل لها[1]. مع أن التوجيه النبوي الأرشد يدعو إلى التثبت في الرواية عن النبي المصطفى ﷺ: «**من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من**

(١) كثير من الناس يروون قول القائل: «**سؤر المؤمن شفاء**» على أنه حديث نبوي شريف، والواقع أنه كلام مردود، وليس بحديث. انظر: كشف الخفا - إسماعيل بن محمد العجلوني: ١ / ٥٥٥ (مؤسسة الرسالة - تصحيح وتعليق أحمد القلاش ط ٣:١٤٠٣هـ).

النار»[(١)]، والتحذير القرآني الأحكم يُهيب بالمسلم ألا يتسرع في الرواية: ﴿**وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً**﴾[(٢)].

قال ابن الجوزي[(٣)]: «قفا، يقفو الشيء: اتّبع أثره. والمعنى: لا تقلْ: رأيتُ، ولم تَرَ، ولا: سمعتُ، ولم تسمع» «ولمَ عزمتَ على ما لم يحلُّ لك العزمُ عليه»[(٤)].

وقد اعتنى علماؤنا القدامى - رحمهم الله - بالإسناد أيمّا عناية، حتى قالوا: «الإسناد من الدين، ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء»[(٥)]. وتراهم يذكرون أسانيدهم فيما يروون، ليس في كتب الحديث والتاريخ فحسب، بل حتى في كتب

---

(١) حديث متواتر، رواه البخاري ومسلم وغيرهما. قال ابن الجوزي: رواه عن النبي ﷺ ثمانية وتسعون صحابياً، منهم العشرة المبشرون بالجنة، ولا يعرف ذلك في غيره. انظر: كشف الخفا - العجلوني: ٢ / ٣٦١ .

(٢) الإسراء: ٣٦ .

(٣) زاد المسير: ٥ / ٣٤ (المكتب الإسلامي - ط٣ - ١٤٠٤هـ). وانظر: تفسير الفخر الرازي: ٢٠ / ١٦٨ .

(٤) الكشاف - الزمخشري: ٢ / ٦٦٧ .

(٥) قول الإمام عبدالله بن المبارك رحمه الله. انظر كتاب: الإسناد من الدين - عبدالفتاح أبو غدة (الطبعة الأولى): ١٦ - ١٧ . والإسناد: حكاية طريق متن الحديث، أي: الرجال الذين رووا نصّ الحديث.

الأدب، والأخبار والأشعار. ووضعوا لذلك الاصطلاحات الدقيقة: فإن قال أحدهم: حدثنا فلان، فالمراد: سمعت مع غيري من لفظ الشيخ، وإن قال: أخبرنا، فالمراد: قُرئ على الشيخ وأنا حاضر فأقرّ بذلك. وقد وضعوا لقبول الأحاديث والاطمئنان إليها ضوابط غايةً في الدقة، محل النظر فيها كتب علم مصطلح الحديث. لكن يحسن - في هذا المقام - إيراد ما عرّفوا به الحديث الصحيح، فإنه يصلح أن يُتخذ قاعدة على أساسها نقبل الأخبار أو نردها. قالوا: «الحديث الصحيح هو ما اتصل سنده بنقل العدل الضابط، عن مثله، إلى منتهاه، من غير شذوذ ولا علة قادحة».

ومعنى اتصال السند: أن كل راوٍ من رواته قد أخذه مباشرةً عمّن فوقه، من أول السند إلى منتهاه.

وعدالة الراوي تعني: أنه مسلم، بالغ، عاقل، غير فاسق، وغير مخروم المروءة.

والمراد من الضبط: أنّ كل راوٍ من رواته تامُّ الضبط سواءٌ حدَّث من حفظه أو من كتابه.

والشذوذ: هو مخالفة الثقة لمن هو أوثق منه. والعِلّة سبب غامض خفي يقدح في صحة الحديث، مع أن الظاهر السلامة منه [١].

ولا شك أن المرء لا يستطيع أن يُخضع كلَّ المعلومات التي يحتاج إليها إلى هذا المعيار الصارم، ولكنه - على الأقل - يتريث في قبولها وتصديقها، ويصنّفها بحسب أهميتها، فالمهم لابد من التأكد من صحته، وما سوى ذلك، فعلى درجات متفاوته، كلٌّ بحسبه.

ويظن بعض الناس أن المرءَ إذا بدأ حديثه بألفاظ لا تفيد القطع، (مثل: سمعتُ من بعض الناس، أو: قيل لي، أو: يزعم بعضهُم.... إلخ) فهو ناجٍ من الملام، والواقع أن الأمر ليس كما يظن. فقد أخرج الإمام أبو داود في سننه[٢]، (في كتاب

(١) انظر: تيسير مصطلح الحديث - د. محمود الطحان: ٣٣-٣٤ . (مطبعة المدينة - الرياض - ط١: ١٣٩٦). والمروءة: آداب نفسانية تحمل مراعاتُها الإنسانَ على الوقوف عند محاسن الأخلاق، وجميل العادات. وخوارمها هي الأمور التي تناقضها، أو تُسيء إليها. إذ من معاني (خَرَمَ): شقّ، وثقب، وقطع. ومثال خوارم المروءة: البول في طرق الناس، والمجيء إلى العمل بملابس النوم... وهي - في الجملة - أمور تتغير بتغيرّ الأزمنة والأمكنة والأعراف.

(٢) انظر: عون المعبود شرح سنن أبي داود: ١٣ / ٢١٤، وفيض القدير شرح الجامع الصغير - محمد عبدالرؤوف المناوي: ٣ / ٢٨٠ (ضبطه وصححه أحمد عبدالسلام - مكتبة عباس أحمد الباز - مكة المكرمة).

الأدب: باب في الرجل يقول: زعموا) قول ابن مسعود رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بئس مطية الرجل زعموا[١]». أي: أسوأ عادة للرجل أن يتخذ لفظ (زعموا) مركباً إلى مقاصده، فيخبر عن أمر تقليداً من غير تثبّتٍ فيخطئ، ويجرب عليه الكذب. والمقصود أن الإخبار بخبر مبناه على الشك والتخمين دون الجزم واليقين قبيح، بل ينبغي أن يكون لخبره سند وثبوت، ويكون على ثقة من ذلك، لا مجرد حكاية على ظن وحسبان. وفي المثل: (زعموا) مطية الكذب.

ومما يحسن ذكره في هذا المقام ليعلم القارئ الكريم ما كان عليه الأئمة الأعلام من دقة في الاستيقان من المصادر التي يستقون معلوماتهم منها، قول إمام أهل المدينة مالك بن أنس رحمه الله:

«إن هذا العلم دين، فانظروا عمّن تأخذون دينكم. لقد أدركت سبعين ممن يقول: قال رسول ﷺ، (يعني من رواة الحديث الشريف)، عند هذه الأساطين (وأشار إلى أعمدة المسجد النبوي). فما أخذت عنهم شيئاً، وإن أحدهم لو اؤتمن

(١) جاء في المعجم الوسيط: زَعَم: ظنّ. وأكثر ما يستعمل الزعم فيما كان باطلاً أو فيه ارتياب. وزعم: قال، وكذب، ووعد.

على بيت مالٍ لكان أميناً، إلا أنهم لم يكونوا من أهل الشأن (أي: أهلاً للرواية). وقدم علينا ابنُ شهابٍ الزُّهري فكنا نزدحمُ على بابه، (أي: لنسمع منه روايته لحديث رسول الله ﷺ، لأنه كان إماماً في هذا الشأن)».

وكان - رحمه الله - يقول: «لا يؤخذ العلم من أربعة، ويؤخذ ممّن سواهم:

«لا يؤخذ من سفيه، ولا يؤخذ من صاحب هوى يدعو إلى بدعته، ولا من كذاب يكذب في أحاديث الناس، وإن كان لا يتهم على حديث رسول الله ﷺ، ولا من شيخ له فضل وصلاح وعبادة، إذا كان لا يَعْرف ما يَحمل، وما يُحدّث به»[1].

(١) الانتقاء في فضائل الأئمة الثلاثة الفقهاء - ابن عبدالبر - تحقيق: عبدالفتاح أبو غدة: ٤٦ .

٤ ـ تدخل الهوى (أو العواطف) في الحكم:

عرّف الراغب الأصفهاني[١] الهوى فقال: «الهوى: ميل النفس إلى الشهوة. وقيل سُمّي بذلك لأنه يهوي بصاحبه في الدنيا إلى كلّ داهية، وفي الآخرة إلى الهاوية...». وعرّفه الشريف الجرجاني[٢] بأنه «ميلان النفس إلى ما تستلذّه الشهوات من غير داعية الشرَّع».

وقد ذمّ القرآن الكريم اتّباع الهوى، وبيّن أنه يُضلّ صاحبه عن الحق والصواب، بل قد يدفعه إلى التكذيب بالحقّ استكباراً وعناداً، وربما حمله على ارتكاب جريمة القتل، وفيما يلي بضعة آيات كريمات لا تحتاج إلى تعليق:

﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾[٣].

﴿وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾[٤].

---

(١) المفردات: ٥٤٥ .
(٢) التعريفات: ٢٧٨ .
(٣) ص: ٢٦ .
(٤) الكهف: ٢٨ .

﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً﴾[١].

﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾[٢].

وقال تعالى مخاطباً بني إسرائيل: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾[٣].

ويسمّي بعض المفكّرين الغربيين الهوى بـ (التحيّز)، ويعرّفون التحيّزات بأنها «طرق في التفكير تقررها سلفاً قوىً ودوافع انفعالية شديدة، كالتي يكون مصدرها منافعنا الذاتية الخاصة، أو ارتباطاتنا الاجتماعية»[٤].

---

(١) الفرقان: ٤٣ .

(٢) المؤمنون: ٧١ .

(٣) البقرة: ٨٧ .

(٤) التفكير المستقيم والتفكير الأعوج - روبرت هـ . ثاولس: ١٨٣ وانظر في الموضوع نفسه: التفكير علم وفن - هنري هازليت ١٠١ - ١٢٤ بعنوان: التحيز والشك، وفصول في التفكير الموضوعي - د. عبدالكريم بكّار: ٦٦ - ٧٠ بعنوان: التجرد من الأهواء. والتفكير العلمي - د. الدمرداش سرحان و د. منير كامل: ١٦٨ - ١٦٩ بعنوان: الوقوع تحت تأثير الانفعالات الشديدة والعواطف الجامحة. والتفكير الواضح - هاي روتشليس: ١٣٢ - ١٣٣ بعنوان العاطفة والتفكير. والطريق إلى التفكير المنطقي - وليم شانر: ١٠٥ - ١٠٧ بعنوان المشاعر القوية.

يقول جوزيف چاسترو[١]: «إن التفكير الصحيح فنٌّ عسير على الكثيرين لسببين على الخصوص: الأول: أن عقولاً كثيرة ليس لديها الكفاءة لهذه المهمّة... والثاني: هو تدخل الانفعالات والعواطف... فكثيراً ما نقبل، أو نصل إلى نتيجة تحت تأثير رغبةٍ، أو أمل، أو خوف... وهذا هو الهوى..».

«إن الهوى هو الحكم على شيءٍ مُقدّماً. في أثناء عملية الاستدلال يجعلنا الهوى نتجاهل بعض الوقائع، ونبالغ في تقدير بعضها الآخر، ميلاً منا نحو نتيجة معينة موضوعة في ذهننا منذ البداية»[٢].

«إن عراقيل التفكير ليست واضحة كعراقيل الكلام. والمفكر نفسه قد لا يَفْطَنُ لوجود عراقيل في تفكيره، كما يجهل المصاب بعمى الألوان حقيقة آفته إلى أن يكتشف - مع الزمن - أن الناس من حوله يرون الأشياء على خلاف ما يراها.

---

(١) التفكير السديد: ١١٥ ، ١٢٠ - ١٢١ ، ١٢٩ بتصرف.

(٢) يعبّر ثاولس (١٨٧) عن هذه الفكرة بقولة: «إننا نكون تحت تأثير الهوى والتحيز ميالين إلى تصديق ما نرغب في تصديقه، أو نحتاجه أن يكون صحيحاً، وإلى إنكار ما نرغب فى إنكاره أو ما نحتاجه أن يكون باطلاً».

«وليس من الضـــروري أن يكون الهــوى فِــجّــاً، غليظاً، واضحاً للعيـان، بل قد يكون دقيقاً خفياً، فإن الأهواء على دجات متباينة، ويمكن أن تتسرب إلى التفيكر من مستويات كثيرة. ومعرفة خطر الأهواء نافع في الاحتياط منها في خطوات تفكيرنا المنطقية».

وقديماً أشار الشاعر الحكيم إلى قريب من هذا المعنى فقال:

وعين الرّضا عن كلّ عيبٍ كليلةٌ

ولكنّ عين السخط تبدي المساويا

يقول الدكتور محمد عثمان نجاتي[١] تحت عنوان: (التحيّز الانفعالي والعاطفي): «بينت بعض الدراسات التجريبية الحديثة في علم النفس حدوث أخطاء في التفكير نتيجة التحيّز الانفعالي والعاطفي؛ ففي إحدى هذه التجارب قُدمت إلى مجموعة من الطلبة بعض البراهين القياسية، وطلب منهم أن يبينوا ما إذا كانت النتيجة تعتبر منطقية من المقدمتين المستخدمتين في القياس. وكان نصف هذه البراهين القياسية يتعلق بأمور الحياة العادية، ونصفها الآخر

(١) القرآن وعلم النفس: ١٥٣ ، ١٥٤ .

يتعلق بأمور من شأنها أن تثير الانفعال؛ وتبيّن من نتائج هذه التجربة أن جميع الطلبة وقعوا في عدد من الأخطاء في البراهين المثيرة للانفعال أكثر من عدد الأخطاء التي وقعوا فيها في البراهين الأخرى العادية غير المشيرة للانفعال. وتوضح نتائج هذه التجربة أن حالتنا الانفعالية والعاطفية تؤثر في تفكيرنا، وتميل به إلى التحيّز، والوقوع في الخطأ فيما نصدره من أحكام».

openkandl.com

٥ ـ المبالغة في التبسيط:

يُروى عن إميرسون أنه قال: ما أشقُّ عملٍ في العالم؟ وأجاب: إنه التفكير! فلا غرابة إذن أن يميل الناس - بدافع الكسل النفسي والعقلي - إلى تبسيط الأمور المعقدة، وتلخيص الكتب المطوّلة، وحلّ المشكلات العويصة بجملة سهلة الفهم، سهلة الحفظ!.

لا يخفى على أحد - اليوم - ما نزل بالمسلمين من محن، وما انحدروا إليه من دَرَك، وما يعانونه من مآسٍ ومشكلات آخذ بعضها برقاب بعض. ولا يفتأ المخلصون الغيورون يتساءلون: ما الحلُّ، وما وسيلة الإنقاذ؟ ويأتيهم الجواب المبسط الذي لا يحتاج إلى أدنى قدرة عقلية: إنه العودة إلى الإسلام! أما كيف يكون هذا، وما الخطوات العملية لتحقيقه على أرض الواقع، فلا يكلف أحد نفسه بالخوض فيه، لأنه الجانب العميق العويص من الجواب!.

ولو كان أولئك البسطاء على حقّ لنزل القرآن جملة واحدة، ولما احتاج الرسول ﷺ إلى ثلاثٍ وعشرين سنة من الكدح، والتعب، والجلاد، والكباد، والجهاد، ليستقر الإسلام في النفوس، ولتقوم دولته في الأرض. لكنّ الله سبحانه أعلم

بنفوس خلقه، ورسوله الحكيم المجتبى يعلم أن النفوس لا يسلُسُ قيادها، ولا تتغيّر طبعها وأفكارها بين عشية وضحاها، وأن تربيتها أعقد وأصعب من أن تتم بإصدار مجموعة من التعليمات المبسطة والأوامر اليسيرة.

إن المريض بالبدانة يعلم أن عليه اتباع نظامٍ غذائي صحيح ليشفى من مرضه، ولكن المختص هو الذي يرسم له ذلك النظام بالتفصيل ويغيّره بعد فترة معينة إذا اقتضى الأمر التغيير، ويراقب صحته في أثناء اتباعه لذلك النظام.

يقول ثاولس[1]: «إن المسائل المعقدة حول الحقائق الواقعية لا يمكن إيفاؤها حقّها من القول في معظم الحالات، والإعرابُ عنها بكلمات قليلة.. وأكثر الناس لا يُعنون بالتعقيدات، ولا يأخذونها في الحسبان، وإنما يشعرون بأنهم واقفون على القضية وقوفاً تاماً، وأنهم ألموّا بها إلماماً تاماً إذا هم استطاعوا أن يضعوا مسألة معقدة في قالب بسيط... من ذلك - مثلاً - نظرية أينشتاين في النسبية تحوّلت إلى مجرّد عبارة بسيطة: (كل شيءٍ نسبي)!! ولُخصت أيضاً على هذه الصورة نتائج

(١) في كتابه: التفكير المستقيم والتفكير الأعوج، تحت عنوان: التبسيط المسرف في التفسير: ٢٠٣ - ٢١٤ بتصرف.

الأبحاث العلمية المعقّدة في التغذية حول القيمة الغذائية لمخُتلف أصناف الأكل بعبارات مثل: (الحليب مغذٍّ) و(المربى يحوي سعرات حرارية) و(الخسّ غني بالڤيتامينات).

«والحقيقة أن لأمثال هذه العبارات مزيةً علميةً كبيرةً، وهي أنها سهلة الحفظ، وسهلة الانتقال من شخص إلى آخر؛ ولذا فإن من السهل أن يتعزز الإيمان بها بقوة الإيحاء، فإن شاعت عبارة، وتنوقلت بين الناس أصبحت (شعاراً) له مفعول في سلوك عدد كبير من الناس وفي توجيه هذا السلوك وجهة معينة. وليس استعمال الشعار وسيلة للتأثير في سلوك الناس شيئاً منافياً للحكمة بحكم الضرورة. فالزعيم الحاذق- مهما كانت عملياته الفكرية معقدة- يحتاج في الإعراب عن مذهبه إلى صيغ مبسّطة لتكون مقبولة على نطاق واسع... ولكن الخطر يكمن في أن تصبح هذه الصيّغ المبسطة قواعد تحكم التفكير.

«ومن طرق التفكير الشائعة ما يتجلى في مثل قولنا: (لكل واحدٍ من الجانبين ما يؤكد حجته؛ ولذلك فإني لا أستطيع أن أعطي رأياً في الموضوع، أو لا أستطيع أن أتخذ موقفاً). ومثل هذه العبارات تصدر عن أناس أذكياء يتحاشون الوقوع في مهاوي التفكير المبسط، لكنّ إحجامهم عن اتخاذ

الموقف أو القيام بعمل هو بنفسه هوة لا تقل خطراً عما فرّوا منه. ولنطلق على هذا الإحجام عبارة (الانسلاخ النظري أو الأكاديمي عن الحياة العملية).

«ومع ما قدّمنا فلا مناص لنا من اتخاذ موقف، أو القيام بعمل مُجدٍ في مناصرة الجانب الذي نرى أن له حججاً أصحّ وأصدق. ولنعط مثالاً يوضح هذا الرأي. لو كنا نسوق سيارة في ساحة مكشوفة ممتدة، واعترض سبيلنا عارض، فإنّ بالإمكان تجنبَ هذا العارض بالانعطاف إما يمنة وإما يسرة. والحجج للاتجاه في كلا الجانبين يمكن أن تكون متسارية، ولكن لابد لنا من اختيار أحدهما دون أن نسمح لحجج الآخر الممتازة أن تؤثر في قرارنا، ولو اكتفينا بالقول: إن لكل من الاتجاهين حججاً تؤيده، واستمررنا في قيادة السيارة إلى الأمام، فإننا نعرض أنفسنا إلى خطر محقق قد يودي بحياتنا..

«إن التفكير المبسط له بعض النفع في النواحي العملية، إلا أنه في واقع الأمر قد يكون عقبة في سبيل التفكير المستقيم. فإذا كان الغرض الذي نرمي إليه هو الحقيقة، وليس الكسل أو المصلحة الخاصة، فالواجب علينا ألا نسمح به» لما له من سلبيات كبيرة في المدى البعيد.

٦ ـ الخلط بين التقدير والتقديس:

احترام الكبراء والعلماء والفضلاء وتقديرهم أمر منسجم مع الفطرة السليمة، ودعت إليه الشريعة الحكيمة؛ فقد جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إن من إجلال الله: إكرامَ ذي الشَّيبة المسلم، وحامل القرآن غير الغالي فيه، ولا الجافي عنه، وإكرامَ ذي السلطان المقسط**»(١)، وقال: «**ليس منا من لم يرحمْ صغيرنا، ويعرف شرف كبيرنا**»(٢). لكنّ الاحترام والتقدير شيء، والمبالغة في الاحترام إلى درجة التقديس شيء آخر.

وواقع كثير من المسلمين اليوم أنهم يقدسون بعض أئمتهم، أو علمائهم، أو مشايخهم، ويصلون بهم إلى درجة قريبة من العصمة: فلا يخطر ببالهم أن هؤلاء العلماء قد أخطؤوا، ولا يرضون أن ينتقدهم أحد انتقاداً علمياً، بنَّاءً، قائماً على أسس الإنصاف، والاحترام، والبحث عن الحقيقة. وفي الوقت ذاته لا يجدون حرجاً في تخطئة الأئمة أو العلماء

---

(١) رواه أبو داود رقم ٤٨٤٣ وحسنه النووي، والعراقي، وابن حجر.

(٢) رواه أبو داود رقم ٤٩٤٣، والترمذي رقم ١٩٢١ وقال: حسن صحيح. كما رواه الإمام أحمد والحاكم، وصححه، ووافقه الذهبي، انظر في هذين الحديثين تخريج الشيخ عبدالقادر الأرناؤوط لأحاديث جامع الأصول: ٦ / ٥٧٢ ، ٥٧٤ (طبعة عام ١٣٩١ / ١٩٧١).

الآخرين، الذين يحظون بالقدر ذاته من الاحترام والتقديس من قبل جماعات أخرى، أو في أماكن أخرى.

هذا (التعصب) هو واحد من الحجب التي تحجب الحقيقة عن الباحث عنها، وأحد موانع التفكير السديد الذي نحن بصدد الحديث عنه لتحصيله والوصول إليه.

كلنا نذكر في غزوة بدر الكبرى - عندما نزل رسول الله ﷺ عند أدنى ماءٍ من مياه بدر - قولَ الحباب بن المنذر رضي الله عنه: يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل، أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدم ولا أن نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: بل هو الحرب والرأي والمكيدة. فقال: فإن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماءٍ من القوم فننزله، ثم نغوِّر ما وراءه من الآبار، ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه ماءً، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون فنهض رسول الله ﷺ، وتحول إلى المكان والرأي اللذين أشار بهما الحباب رضي الله عنه[1].

(١) انظر: فقه السيرة - د. محمد سعيد رمضان البوطي: ٢١٥، والحاشية التي توثق سند هذه القصة (دار الفكر - ط٨: ١٤٠٠هـ)، والسيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية - د. مهدي رزق الله أحمد: ٣٤٥ (ط١: ١٤١٢ / ١٩٩٢)، والسيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة - د. محمد أبو شهبة: ١٣٤ (دار القلم، ط١: ١٤٠٩ / ١٩٨٨).

والعبرة من هذه القصة أن ثقة الحباب بن المنذر رضي الله عنه برسول الله ﷺ، واحترامه الكامل له لم يكونا حاجزاً يمنعه من إبداء رأيه الذي خالف فيه اجتهاد الرسول عليه الصلاة والسلام، الأمر الذي لا يجرؤ عليه الكثيرون من أتباع الكبراء، وتلاميذ العلماء، ومريدي الفضلاء، فيعطونهم بذلك منزلة أعلى مما أعطى الحباب رضي الله عنه لرسول الله ﷺ!!!

وأضرب على هذه الفكرة مثالين آخرين لأهميتها:

الأول: مناقشة بعض الصحابة رضي الله عنهم النبيَّ ﷺ يوم الحديبية بعد كتابة وثيقة الصلح مع قريش. ومختصر ذلك: أن مشركي مكة شرطوا على رسول الله عليه الصلاة والسلام أن من جاءه مسلماً منهم يُردّ إليهم! «فبينما هم كذلك إذ دخل أبو جندل بن سُهيل ابن عمرو يرسف في قيوده، وقد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين.. وكان قد عُذّب عذاباً شديداً في الله. فقال عمر ابن الخطاب رضي الله عنه: فأتيت نبيَّ الله ﷺ، فقلت: ألستَ نبيَّ الله حقاً؟ قال: بلى، قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى، قلت: فلم نعطي الدنيّة في ديننا إذاً؟! قال: إني رسول الله ولست أعصيه، وهو ناصري. قلت:

أو ليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: بلى، فأخبرتك أنا نأتيه العامَ؟ قال: قلتُ: لا، قال: فإنك آتيه ومطوف به. ثم ذهب عمر رضي الله عنه إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه فقال له الكلام نفسه، فردّ عليه بردّ رسول الله ﷺ[١]. قال عمر رضي الله عنه: «ما زلت أصوم وأتصدق، وأعتق، من الذي صنعتُ مخافة كلامي الذي تكلمت به يومئذ حتى رجوتُ أن يكون خيراً»[٢].

الثاني: أرسل النبي ﷺ أبا هريرة رضي الله عنه قائلاً له: «اذهب بنعليّ هاتين، فمن لقيتَ وراءَ هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله، مستيقناً بها قلبه، فبشره بالجنة». فردّه سيدنا عمر رضي الله عنه ومنعه، فسأله النبي ﷺ: «يا عمر، ما حملك على مافعلت؟» قال عمر: فلا تفعل؛ فإني أخشى أن يتّكل الناس عليها، فخلِّهم يعملون. قال ﷺ: «فَخلِّهم»[٣].

وهذا المثالان رويا في الصحيح، وفيهما، وفي سواهما، أن الاحترام والتقدير لا يمنعان من السؤال، والاستفهام،

(١) صحيح البخاري: ٣ / ١٨٢، كتاب الشروط، باب: الشروط في الجهاد. وانظر: صحيح مسلم: كتاب الجهاد، باب: صلح الحديبية.
(٢) مسند الإمام أحمد: ٤ / ٣٢٥، بسند حسن.
(٣) صحيح مسلم: كتاب الإيمان (٣١).

والتعبير عن الرأي، وهكذا ربّى رسولنا عليه الصلاة والسلام (رجالاً)، ولم يربِّ أناساً خاملين خامدين لا يتحلّون بالشجاعة الأدبية، وحرية التعبير عن الرأي!

ويحسن بنا - ونحن نتحدث عن التقدير والتقديس - أن نذكر الأمور التالية:

١ ـ الحق ليس حكراً على أحد، فكل إنسان يخطئ ويصيب، والمعصوم هو النبي عليه الصلاة والسلام.

٢ ـ العالم الكبير قد تحدث منه زلّة كبيرة، يُعتذر له عنها، ولا تقدح في سائر فضائله.

٣ ـ قد يكون الرجل متفوقاً في علم دون علمٍ، فيكون لرأيه وكلامه وزن فيما برع فيه، لا فيما سوى ذلك. وكم من إمام في الحديث لا باع له في الفقه، وكم من إمام في العلوم العقلية بضاعته في الحديث مزجاة. قال الإمام أبو الفرج بن الجوزي رحمه الله[١]: «.. فأما في هذا الزمان.. فترى المحدِّث يكتب ويسمع خمسين سنة، ويجمع الكتب، ولا يدري ما فيها، ولو وقعت له حادثة في صلاته لا فتقر إلى أحداث

(١) تلبيس إبليس: ١١١ - ١١٢ (دار القلم - بيروت).

المتفقهة الذين يترددون إليه لسماع الحديث منه. وبهؤلاء تمكن الطاعنون على المحدثين فقالوا: زوامل[١] أسفار لا يدرون ما معهم. فإن أفلح أحدهم ونظر في حديثه، فربّما عمل بحديث منسوخ، وربّما فهم من الحديث ما يفهم العامي الجاهل، وعمل بذلك، وليس بالمراد من الحديث.

«وكان ابن شاهين قد صنّف في الحديث مصنفات كثيرة أقلها جزء وأكثرها التفسير، وهو ألف جزء، وما كان يَعرف من الفقه شيئاً!!!».

٤ ـ قد يتصف العالم بخُلُق دون خُلُق، فالكمال في الرجال – حاشا الأنبياء – غير موجود. وتختلف حظوظ العلماء قلةً وكثرةً من فضائل: كالذكاء الحاد، والحكمة العميقة، والتقوى، وسعة الأفق، والذاكرة القوية، وحسن الخلق.. وكم من عالم مخلص تقي نقي لا يكتب حديثه لقلة ضبطه!

(١) زوامل: جمع زاملة، وهي ما يُحمل عليه من الإبل وغيرها. وتسند إلى العقلاء فيقال: هو زاملة من زوامل القلم والدواة، أو الشعر والنثر، على التشبيه في التحمل، أو عدم الدراية. انظر: المعجم الوسيط: ١ / ٤٠٢. قال الزمخشري في أساس البلاغة (١٩٥، طبعة دار المعرفة – بيروت): «ومن المجاز: ما نحن إلا من الحملة والرواة، وزوامل القلم والدواة».

قال الجاحظ[١]:

«ولكل أحد نصيب من النقص، ومقدار من الذنوب، وإنما يتفاضل الناس بكثرة المحاسن وقلة المساوئ؛ فأما الاشتمال على جميع المحاسن، والسلامة من جميع المساوئ: دقيقها وجليلها، وظاهرها وخفيِّها، فهذا لا يُعرف».

٥ ـ قد يدرك الطالب الصغير أمراً يخفى على العالم الكبير، وهذا لا يعني أنه أعلم منه.

٦ ـ مخالفة الصغير للكبير في بعض الرأي لا تعني عدم الاحترام، ومخالفة العالم لمن هو أعلم منه لا تعني الانتقاصَ من منزلته، أو رَفْعَ النفس إلى مستواه. وما أكثر مخالفة أصحاب أبي حنيفة لإمامهم في الرأي، وظلّ هو الإمام، وظلّوا هم الأصحاب.

٧ ـ الحق لايُعرف بالرجال، لكن الرجال يعرفون بالحق، فلا أحد أجلّ من أن يخطئ، ولا أحد أصغر من أن ينصح ويصوّب.

(١) رسائل الجاحظ: ١ / ٣٦ .

وفي الحادثة التالية درس وعبرة:

هذا هو الصحابي الجليل، الأمير القائد، فاتح الديار الشامية، أحد العشرة المبشرين بالجنة، أمين الأمة، أبو عبيدة عامر بن عبدالله ابن الجراح القرشي، رضي الله عنه وأرضاه، يخطئ في موضوع مهم يتعلّق بالقضاء والقدر، فيصوّبه الخليفة الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه. والشاهد في القصة، أن الخليفة عمر خرج إلى الشام، وفي الطريق لقيه أمراءُ الأجناد وأخبروه أن الوباء قد وقع بالشام. فلما أراد العودة إلى المدينة المنورة بعد عملية شورى مُستفيضة، احتج عليه أبو عبيدة بالقضاء والقدر، فقال له: «أفراراً من قدر الله؟» فقال عمر مستنكراً عليه هذا الخطأ: «لو غيرك قالها يا أبا عبيدة!؟ نعم نفرّ من قدر الله إلى قدر الله»[(١)].

وقد عقد الإمام النووي رحمه الله في كتابه القيّم (الأذكار) فصلاً بعنوان: باب في ألفاظ حُكي عن جماعة من

(١) رواه البخاري في الطب، باب ما يذكر في الطاعون، وفي الحيل، باب ما يكره من الاحتيال في الفرار من الطاعون. ومسلم في السلام، باب الطاعون والطيرة والكهانة ونحوها. وأبو داود في الجنائز، باب الخروج من الطاعون.

obeikandl.com

العلماء كراهتها وليست بمكروهة، فلم يمنعه احترامه لهم من مخالفتهم وبيان خطئهم. وفيه يقول: «اعلم أني لا أسمي القائلين بكراهة هذه الألفاظ لئلا تسقطَ جلالتُهم ويُساءَ الظنّ بهم، وليس الغرض القدح فيهم، وإنما المطلوب التحذير من أقوالٍ باطلة نقلت عنهم، سواء أصحَّت عنهم أم لم تصحّ، فإن صحّت لم تقدح في جلالتهم كما عُرف...»[١] ثم يأخذ بسرد تلك الأقوال وبيان فسادها.

قال التابعيّ الجليل سعيد بن المسيب رحمه الله: «ليس من عالم ولا شريف ولا ذي فضل إلا وفيه عيب، ولكن من كان فضله أكثر من نقصه ذهب نقصُه لفضله، كما أنّ من غلب عليه نقصانه ذهب فضله»[٢].

(١) الأذكار: ٥٤٦ - تحقيق عبدالقادر الأرناؤوط (دار الهدى-ط٢: ١٤٠٩ / ١٩٨٨). ومن هذه الأقوال قول بعض العلماء يُكره أن تقول لشخص: تصدّق الله عليك، لأن المتصدق يرجو الثواب. وهذا خطأ إذ ثبت في صحيح مسلم أنه عليه الصلاة والسّلام قال في قصر صلاة العصر: «**صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته**». ثم يسرد المؤلف حوالي عشرة أمثلة.

(٢) جامع بيان العلم وفضله - يوسف بن عبدالبر: ٢ / ٨٢١ (تحقيق: الزهيري - دار ابن الجوزي).

openkanal.com

٧ - عدم التفرقة بين النص وتفسير النص:

لا شك أن نصوص الكتاب الكريم مقدسة؛ لأنها كلام الله سبحانه. وتتلوها في المرتبة الأحاديث الصحيحة؛ لأنها كلام الرسول المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى. **لكنّ بعض الناس يعطون فهمهم للنص، أو فهم العالم الذي يحبّونه، والإمام الذي يتّبعونه مَرْتبةَ النص نفسَها**، ويَعدّون من خالف فهمهم مخالفاً للنص! ولا يخفى ما في هذا الأمر من البعد عن الحق والصواب. ولهذا السبب ضلّ أقوامٌ أقواماً، وفسَّق أناسٌ أناساً، بل وزعم بعض الناس أنهم وحدهم هم أهل التوحيد الخالص!!

إن أكثر نصوص الكتاب والسنة **ظنية الدلالة**؛ أي تحتمل أكثر من معنى واحد، **والبشر متفاوتون في عقولهم، وعلومهم، وقوة فهمهم واستنباطهم**؛ لذلك كان الاختلاف بينهم في فهم تلك النصوص أمراً طبيعياً وشتان بين من يقول: إن هذه الآية خطأ، وإن هذا الحديث بعيد عن الصواب، وبين من يقول: إن فهم فلانٍ لهذه الآية أو ذاك الحديث خطأ، وأنا أرى رأياً آخر، أو أرجّح فهماً آخر.

وهؤلاء هم الصحابة الكرام، معدن اللغة العربية، وفهمهم حجة فيها، اختلفوا في فهم كلام النبي ﷺ، وهو سيد الفصحاء والبلغاء.

روى البخاري ومسلم[١] رحمهما الله في صحيحهما، عن عبدالله ابن عمر رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ لما رجع من الأحزاب قال: «لا يُصلينّ أحد العصر إلا في بني قريظة، فأدرك بعضهم العصر في الطريق، فقال بعضهُم: لا نصلي حتى نأتيها، وقال بعضهم: بل نصلي، لم يُردِ ذلك منّا، فذُكر للنبي ﷺ، فلم يُعنّف أحداً منهم».

فالنص-إذن - شيء، وتفسير النص، أو فهمه شيءٌ آخر.

«إن الاختلاف بوجهات النظر - بدل أن يكون ظاهرة صحة تغني العقل المسلم بخصوبة في الرأي، والاطلاع على عدد من وجهات النظر، ورؤية الأمور من أبعادها وزواياها كلِّها، وإضافة عقول إلى عقل - انقلب عند مسلم عصر

(١) البخاري: ٧ / ٣١٣ في المغازي، باب مرجع النبي ﷺ من الأحزاب، وفي صلاة الخوف، باب صلاة الطالب والمطلوب راكباً وإيماءً. ومسلم برقم: ١٧٧٠ في الجهاد، باب المبادرة في الغزو.

التخلف إلى وسيلة للتآكل الداخلي، والإنهاك، وفرصةٍ للاقتتال، حتى كاد الأمر يصل ببعض المتخلفين إلى حد التصفية الجسدية وإلى الاستنصار والتقوّي بأعداء الدين على صاحب الرأي المخالف، ولهذا في التاريخ القريب والبعيد شواهد. فكثيراً ما يعجزُ الإنسان عن النظرة الكلية السوّية للأمور، والرؤية الشاملة للأبعاد المتعددة، فيقبع وراء جزئية يضخّمها، ويكرّرها حتى تستغرقَه إلى درجةٍ لا يمكن معها أن يرى شيئاً آخر، أو إنساناً يرى رأياً آخر، وقد تصل به إلى أن يرى - بمقايسات محزنة - أعداء الدين أقرب إليه من المخالفين له بالرأي من المسلمين الذين يلتقون معه على أصول العقيدة نفسها»[1].

(١) من تقديم عمر عبيد حسنة لكتاب أدب الاختلاف في الإسلام: ١٠ - ١١ (كتاب الأمة - ط١: ١٤٠٥).

openkanal.com

٨ ـ أخطاء المقارنة:

في المقارنة بين أمرين (أو شخصين، أو جماعتين، أو حزبين، أو بلدين، أو نظامين...) يضع بعض الناس حسنات هذا أمام عيوب ذاك، ويحكمون لأحدهما على الآخر، والصواب أن نضع حسنات الطرفين في كفتين متقابلتين ونوازن بينهما، ثم نفعل بالعيوب مثل ذلك. آخذين بالحسبان أن الحسنات تتفاوت فيما بينها في الأهمية، وكذلك العيوب. فالحفاظ على سنة التطيّب -مثلاً- ليس كالحفاظ على سنة التهجد في الفضل، وإغلاظ القول للأخ الأصغر ظلماً ليس كإغلاظه لأحد الوالدين!

openkandil.com

٩ ـ تناقض الموازين (أو الكيل بمكيالين):

المراد بتناقض الموازين أن يستعمل الإنسان ميزانين مختلفين لوزن حالتين متشابهتين. ويحصل هذا أحياناً في الأمور الفقهية الخلافية دون أن يفطن الواقع فيه إلى ما يقع فيه من التناقض. فنجد الشخص - مثلاً - يستشهد على صحة الرأي الشرعي الذي يحمله بقول الإمام الذي يتّبع مذهبه، أوالعالم الذي يميل إليه، في الوقت الذي لا يرضى منك أن تستدل بقول الإمام الذي تتبع مذهبه، أو العالم الذي تميل إليه، ويقول لك: أريد الدليل من الكتاب أو السنة، ونسي أنه أتى بدليله من فهم العلماء لا من الكتاب والسنة!!

وتناقض الموازين، أو (الكيل بمكيالين) هو نوع من أنواع الظلم للحقيقة (وهو ظلم معنوي) عند الحديث عن التفكير وعيوبه، وقد يكون (ظلماً مادياً) على مستوى الأفراد، أو الجماعات، أو الأحزاب، أو الشعوب، أو الدول... فيمارس كل واحد من هؤلاء نوعاً من الظلم يختلف باختلاف دواعيه، وأسبابه، وموضوعه....

وقد أشار القرآن الكريم إشارة رائعة إلى هذا النوع من أنواع الظلم بقوله:

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلا يَظُنُّ أُوْلَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾؟!

إذ بدأت سورة (المطففين) بإعلان الحرب من الله عليهم. والمطففون هم الذين يبخسون حقوق الناس في الكيل والوزن عن الواجب لهم من الوفاء. جمع: مُطفِّف؛ من الطّفيف، وهو التافه القليل؛ لأن ما يبخسه المطفف شيءٌ نزرٌ حقير. وهو وعيد شديد لمن يأخذ لنفسه وافياً، ويعطي لغيره ناقصاً، قليلاً كان أو كثيراً. وأنا أرى الشبه شديداً بين (التطفيف المادي) و(التطفيف المعنوي)، بل قد يكون الثاني أخطر بكثير!![1].

(١) انظر: في ظلال القرآن - سيد قطب: ٦ / ٣٨٥٤، (ط. دار الشروق - ١٣٩٧هـ)، وصفوة البيان لمعاني القرآن - حسنين محمد مخلوف: ٧٩٠، (ط٣ - وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالكويت).

obeikandl.com

١٠ ـ الخطأ في استعمال اللغة:

«قال عثمان المهري: أتانا كتاب عمر بن الخطاب رضي الله عنه ونحن بأذربيجان يأمرنا بأشياء، ويذكر فيها: تعلّموا العربية فإنها تُثبّتُ العقلَ، وتزيد في المروءة»[١].

يقول وليم شانر في كتابه: الطريق إلى التفكير المنطقي، تحت عنوان: الدقة في استعمال اللغة[٢]:

«التفكير المنطقي نوع من المحادثة التي نقوم بها مع أنفسنا. إننا نسأل أنفسنا، ونبحث عن إجابات لأسئلتنا، ثم نقارن كل إجابة بالأخرى. ولكي نقوم بهذه المحاولة نجد أنفسنا مضطرين إلى استخدام الألفاظ، ودون هذه الألفاظ لا نستطيع أن نفكّر تفكيراً منطقياً. إن الألفاظ لَبِنات التفكير المنطقي، وإذا شئنا أن نفكر تفكيراً صائباً فإن من الواجب أن نفهم ما يتعلق بمادة البناء التي نستخدمها».

---

(١) صبح الأعشى - المقالة الأولى - تحت عنوان: المعرفة بالنحو وبيان وجه احتياج الكاتب إليه.

(٢) ص٢٢ بتصرف. وانظر: التفكير الواضح - هاي روتشليس: ٦٥ - ٩١ بعنوان: اللغة والتفكير؛ والتفكير المستقيم والتفكير الأعوج - روبرت ثاوليس: ١٠٧ - ١٢٢ بعنوان: معاني الكلمات؛ وفصول في التفكير الموضوعي - د. عبدالكريم بكّار: ١٢٧ - ١٢٩ بعنوان: اللغة الكمية.

يقول الراغب الإصفهاني[١]: «...إن أول ما يُحتاج أن يُشتغل به من علوم القرآن: العلوم اللفظية. ومن العلوم اللفظية: تحقيق الألفاظ المفردة؛ فتحصيل معاني مفردات ألفاظ القرآن الكريم في كونه من أوائل المُعاون لمن يريد أن يدركَ معانيه كتحصيل اللَّبِن في كونه من أول المُعاون في بناء ما يريد أن يبنيه. وليس ذلك نافعاً في علم القرآن فقط، بل هو نافع في كل علم..».

ويقول جوزيف چاسترو[٢].

«إن جزءاً كبيراً من تفكيرنا يجري في ألفاظ. فالكلام والكتابة يبلوران الألفاظ وينظّمانها. والحجة القانونية أو العلمية، ومخاطبة الناس جميعاً: أفراداً وجماهير تقوم على صياغة الأفكار في قوالب الألفاظ؛ فالتدريب -إذن- على الاستعمال الصحيح للغة، وتوسيع دائرة المفردات هو أحد أنواع التدرّب على التفكير.

---

(١) المفردات في غريب القرآن: ١٠ .

(٢) التفكير السديد: ٢٥٦ - ٢٥٧ بتصرف، وانظر: اللسان والإنسان - د. حسن ظاظا، الفصل الرابع: الكلام والفكر.

openkandil.com

«والألفاظ -أيضاً- قد تعرقل التفكير وتؤذيه، إذا استُخدمت بشكل عائم غائم، من غير أن يكون وراءها رصيد من أفكار صحيحة واضحة، وما أكثر أخطاء التفكير الناجمة عن خداع الألفاظ.

«إن معرفتك كيف تقول ما تفكر فيه بشكل سديد مبدأ من أهم مبادئ (الصحة المنطقية)، إذ الفكر ينضَجُ عن طريق التعبير؛ لأنك حين تكون بصدد الكتابة أو الكلام تتعلم كيف تفكر تفكيراً سديداً لِتُحسنَ التعبير، كما تتعلّمُ كيف تفكر تفكيراً سديداً وأنت تعمل لِتُحسِنَ التنفيذ...».

ومن الأخطاء الخطيرة التي يقع فيها بعض الناس، وتكثر عند الشعراء والأدباء، أنهم يجعلون المعاني تابعة للألفاظ، فيسترسلون مع التعابير والمفردات، بشكل يهدد المعنى، ومن ثمّ يهدد التفكير:

قال الإمام عبدالقاهر الجرجاني[1] رحمه الله: «ومن هنا رأيت العلماء يذمّون من يحملُهُ تطلّبُ السجعِ والتجنيسِ على أن يضمَّ لهما المعنى (أي: يجعله تابعاً لهما لا متبوعاً)، ويُدخلَ

(١) دلائل الإعجاز: ٤٠١، (دار الكتب العلمية - بيروت).

الخلل عليه من أجلهما، وعلى أن يتعسّف في الاستعارة بسببهما..».

«إن تحفيظ الطفل المفردات اللغوية يسهم في إطلاق طاقاته المتنوعة. ويرى (فيشر)[١] - في معرض تعليقه على تحفيظ القرآن لأبناء المسلمين - أن تزويد الطفل بالمهارات اللغوية منذ الطفولة المبكرة يسهم في تفوقه المستقبلي، كما يرى أن التفوق في مجال الاجتماع والسياسة مقصور على الذين نشؤوا في بيئة غنية لغوياً، وتزودوا بالمهارات اللغوية مبكراً.

«إن الطلاقة اللغوية تشجع على التفكير المجرّد، كما تساعد صاحبها على الدقة في التعبير بطرق مختلفة، وتنمي التواصل والتفاهم مع الآخرين، وتساعد على التعليم الذاتي؛ لذلك لا عجب إذا قلنا: إن الذكاء اللغوي هو أحد مفاتيح النجاح في الدراسة، وفي الحياة العلمية على حدٍّ سواء، وهو بحاجة إلى تدريب لينمو ويقوى»[٢].

(١) Fisher, R. (1990) Teaching Children To Think, P. 15 .

(٢) تعليم التفكير - د. إبراهيم أحمد الحارثي: ص ٢٢ ، ٢٣ بتصرف.

obeikandl.com